صناعة الشواهد القبرية
في تلمسان المحمية

أ. د./ عبد الحق معزوز

معهد الآثار/ جامعة الجزائر2

تقديم:

اكتست شواهد القبور في العصر الإسلامي، على عكس العصور الأخرى، قيمة أثرية وتاريخية وفنية كبيرة، استمدتها بشكل خاص من المواد التي صنعت منها هذه الشواهد، مثل الرخام والحجر والخشب، ومما تتميز به من تقنيات صناعية وفنية، فضلا عما تتضمنته نصوصها الشاهدية في طياتها من أبعاد تاريخية واجتماعية، ورموزا ودلالات سياسية ودينية وعقائدية، بالإضافة إلى الطرز والأساليب الفنية المتعددة التي تزخر بمواضيع زخرفية ثرية بعناصرها الكتابية والهندسية والنباتية، مبرزة في الوقت نفسه مهارة الصناع ومدى ارتباطهم بمحيطهم الديني والاجتماعي والطبيعي بكل ما تعكسه من تطورات سياسية واقتصادية ودينية وثقافية وغيرها.

وخلافا للشعوب القديمة، لقد خالف المسلمون الممارسات والطقوس الوثنية القديمة التي كانت تصاحب دفن الميت، وتودع معه في قبره، وذلك لتناقضها مع تعاليم الدين الإسلامي الجديد كدفن الأثاث معه (أواني وحلي ونقود) وغيرها من الأشياء التي كانت توضع مع الميت اعتقادا منهم بأنه سيحتاج إليها في في الحياة الثانية. إلا أنهم قلدوهم في بعض الأمور التي لم تكن ممارساتها تتنافى مع دينهم الجديد، ولا تشكل أي تناقض مع تعاليمه، كاستخدام المسلمين، على سبيل المثال، شواهد القبور للاستدلال بها على أماكن موتاهم، ونقش أسماء الأموات عليها تيمنا بعرب الجاهلية. وتشير المعطيات الأثارية أن استعمال المسلمين لشواهد قبور في بداية العصر الإسلامي كانت محتشمة جدا ولم يكن لها بعدا حضاريا كالذي صارت عليه في السنوات القليلة الموالية : أي في منتصف القرن الأول الهجري. ورغم البداية المحتشمة فما لبثت هذه الصناعة أن انتشرت على أوسع نطاق في كامل الأقطار الإسلامية، من دون إثارة مشاكل فقهية فيما يخص شرعية الشواهد من عدمها، باستثناء تسجيل خلافات فقهية بسيطة بخصوص ما يجب أن يكتب على الشاهد وما لا يجب.

ومع مرور الوقت تطورت هذه الصناعة شكلا ومضمونا إلى أن صارت في وقتنا الحاضر من أهم الوثائق المادية للتأريخ للميت وللقبر والمقبرة على السواء، يستعين بها الباحثون في علم الآثار لدراسة حياة الشعوب القديمة ومعرفة نمط حياتهم وثقافاتهم الدينية والمدنية.

لقد سار العرب المسلمين على درب أسلافهم عرب الأنباط باستعمال الشواهد القبرية للاستدلال على قبور موتاهم، كنقش أم الجمال (270م) والنمارة[1] في سوريا (328م)، والذي يعد ثاني أقدم شاهد من الحجر مكتوب عليه بالخط النبطي البدائي الذي يعتبر أساس الخط العربي، ينسب لامرئ القيس بن عمروبن عدي من آل نصر ملوك الحيرة، وتعد نصوصه من أقرب النصوص الشاهدية لشواهد قبور المسلمين التي ترجع إلى بداية العهد الإسلامي، كشاهد قبر أسوان[2] المؤرخ في عام 31 هـ. والذي يعد أول محاولة من نوعها- فيما يعرف- بالكتابة التذكارية وصناعة شواهد القبور في العالم الإسلامي. أما لغة كتابة شاهد قبر امرؤ القيس، فيعتبرها الدكتور يوسف محمد عبد الله[3] من أهم ما كتب في ذلك الوقت باللغة العربية معنى ومبنى وخطا مدعما رأيه بعبارة (فلم يبلغ ملك مبلغه).

1- تلمسان وصناعة الشواهد :

لا شك وأن مدينة تلمسان كغيرها من المدن والحواضر الإسلامية التي عرفت هذه الصناعة وانتعشت فيها وازدهرت بالتوازي مع ازدهار سائر الصناعات والفنون الأخرى التي تدخل ضمن الاحتياجات الأساسية لسكان المدينة.

وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد، متى عرفت مدينة تلمسان هذه الصناعة، على اعتبار أن ما وصلنا منها يعود إلى الفترة الزيانية وما بعدها، فإن للمدينة شأن تاريخي ومكانة هامة قبل تلك الفترة، حيث كانت في العهد

---

[1] النمارة هي منطقة صحراوية تقع في بادية الشام عثر فيها على شاهد قبر من الحجار مستطيل الشكل، يعرف بشاهد أمرؤ القيس. أوبشاهد حران نسبة للموقع الذي وجد فيه. وورد اسم النمارة بضم النون وهوموضع كان فيه وقعة للجيش الإسلامي بالعراق.قال فيه النابغة الذبيان بيت شعر " وما رأيتك إلا نظرة عرضت - يم النمارة والمأمور مأمور. ولا أضن أنه المكان نفسه الذي وجد فيه النقش الحجري. أنظر لياقوت الحموي معجم البلدان، المجلد الخامس، دار صادر للطباعة والنشر –بيروت 1404ه/1984م، ص304.

[2] **يعد هذا الشاهد من أقدم شواهد** القبور في العالم الإسلامي ويعود إلى عهد ولاية عمر بن العاص على مصر، .

[3] يقع هذا النقش في عهد ولاية عمروبن العاص حينما كان واليا على مصر بين (23-35هـ)، محفوظ الآن في المتحف الإسلامي بالقاهرة، تحت رقم 1508/20

الإدريسي من أهم مدن المغرب الأوسط، ثم أصبحت في العهد المرابطي من أهم الحصون الأمامية للدولة المرابطية في وجه الخطر الشيعي الفاطمي، وفي العصر الموحدي رغم أنها لم يكن لها دور سياسي كذلك الذي كانت تقوم به في العهد المرابطي إلا أنها كانت ولا شك قد حافظت على الكثير من معالمها الحضارية والثقافية التي كانت اكتسبتها في العهد المرابطي.

ورغم عدم وجود شواهد قبرية تعود إلى ما قبل العصر الزياني، غير أننا لا نشك إطلاقا في وجود هذه الصناعة في تلمسان ما قبل الزيانيين، لأن في هذه الفترة بالذات عرفت هذه الصناعة انتشارا كبيرا في المغرب الأوسط ولا سيما في الحواضر والمدن الكبرى كالقلعة وبجاية وأشير في العصر الحمادي والموحدي، وليس من المنطق القول بأن أهل تلمسان لم يكونوا يعلمون قبور موتاهم بمثل هذه المعالم الحضارية، التي أصبحت منتشرة في جميع أقطار العالم الإسلامي شرقه وغربه، وصارت على درجة عالية من التطور.

2- خصوصية الشواهد التلمسانية:

تتميز الشواهد الزيانية بخصوصيات فنية وتقنية متعددة، أصبغت عليها طابعا مميزا، يختلف إلى حد ما مع شواهد القبور التي تعود إلى العصور الأخرى. إلا أن التأثير الحمادي والموحدي في شكل الشواهد، وفي أسلوب الخط يبدوجليا للعيان، فالشكل الموشوري للشواهد التلمسانية هوتأثير حمادي لا شك فيه، وخط النسخ الذي نقشت به النصوص الشاهدية هي تأثيرات موحدية لا شك فيها أيضا. ومع ذلك فالبصمات الزيانية تبدوهي الأخرى جلية وواضحة للعيان كما سنبين ذلك لاحقا، .

3- مواد صناعة الشواهد:

أما مادة الصناعة فقد اختلفت من مكان إلى آخر ومن عصر إلى آخر، كما تنوعت تقنياتها، وتطورت أساليبها الفنية، الأمر الذي أفضى مع تعاقب العصور وتوالي الأزمنة إلى ثراء وتنوع في هذه المادة التي صارت على درجة عالية من التطور الفني والتقني أعطاها بعدا جماليا، وغدت بفضل تطور أساليبها الفنية تصنف ضمن التحف الفنية. ذلك أنها لم تعد تختلف من حيث مظهرها ومواضيع زخاريفها عن التحف الأثارية الأخرى التي تصنف ضمن التحف الفنية ذات الذوق الجمالي والفني العالي، مثل الأواني الزجاجية والخزفية والتحف الخشبية والمعدنية، الخ.

ارتبط استعمال بعض المواد بأزمنة معينة وأمكنة جغرافية محددة، وبما كانت تجود به البيئة الجغرافية وتوفره الطبيعة من مواد خام على الفنان والحرفي.

ففي العصر الزياني انتعشت صناعة الشواهد انتعاشا كبيرا، التي كانت ورشاتها قائمة ومنتشرة على مداخل وأبواب مقابر المدينة التي يقارب عددها العشرة[1]. بين مقابر عمومية ومقابر ملكية وأخرى خاصة بالعائلات الميسورة، ومقابر الأضرحة التي نمت وكبرت حول الأضرحة كضريح سيدي أبي مدين. ويبدومن خلال ما وصلت إليه صناعة الشواهد في العهد الزياني من نطور وازدهار أنها كانت تعنى برعاية الدولة على الأقل فيما يخص الشواهد الخاصة بالأسرة الحاكمة والطبقة الميسورة التي كان وضعها الاجتماعي يسمح لها بصناعة شواهد رخامية وحجرية ذات قيمة جمالية إن في شكل الشاهد أوفي جماليته من حيث نوع الخط وأسلوب الزخرفة. كما أن لهذه الصناعة حرفيون وفنانون وصناع كانوا على دراية عالية بأسرار فن النحت والخط والزخرفة، وبالنظر لنوعية الشواهد والعدد الكبير الذي تحوز عليه هذه المدينة، لا يمكن إلا الاعتقاد بأن هناك ورشات كثيرة كانت تنتشر أمام المقابر، في الطرق المؤدية إلى المقابر خارج أسوار المدينة، كما أننا لا نستبعد وجود تنظيم نقابي لهذا الصنف في المدينة سواء في العهد الزياني أوفي العهد العثماني.

أ- الرخام :

من بين المواد التي انتشر استعمالها في ذلك العهد نجد مادة الرخام الأبيض من نوع الأونيكس الشفاف ذي النوعية الرفيعة الذي كان يستخرج من محاجر قريبة من مدينة تلمسان[2]، ويغلب الظن أنه كان يستخرج من محاجر مدينة ندرومة التي تشتهر بهذا النوع من الرخام إلى يومنا هذا على غرار منجم فليفلة بسكيكدة في الشرق الجزائري. ويلاحظ أن هذا النوع من الرخام قد استعمل في صناعة شواهد ملوك وأمراء تلمسان على وجه الخصوص، وخاصة فيما يعرف بالشواهد الموشورية الشكل أوالسنمية، وبعض الشواهد المربعة واللوحات التذكارية. واستمر استعمال مادة الرخام طيلة فترة الحكم الزياني، ويرجع سبب اقتصاره على الأسرة المالكة والصفوة لسبب غلاء المادة.

---

[1] مرابط ليلى، الكتابات الشاهدية الزيانية 8 - 10هـ/14- 16م – مجموعة متحف تلمسان، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2001- 2002، ص44.

[2] Brosslard(Ch), memoires epigraphiques et historiques sur les tombeaux des emires Beni-Zeiyaneet de Boabdil roi de Grenades découvert a Tlemcen, Journal Asiatique,7eme serie.Janvier-Fevrier1876,pp,243-244.

ب – الحجر :

عرفت مادة الحجر الرملي توظيفا محتشما في صناعة شواهد القبور في البدايات الأولى للحكم الزياني في تلمسان، بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي (718هـ/1318م). إلا أنها انتعشت إلى حد ما في القرن التاسع والعاشر الهجريين في صناعة الشواهد غير الملكية، كشواهد القضاة والأطباء والأعيان والملأ من المجتمع التلمساني في ذلك العهد.

وفي العصر العثماني، شهدت الشواهد القبرية المصنوعة من الحجر الجيري منعطفا هاما إن في الاستعمال أو في نوعية الزخرفة التي كانت تزينها. ففي مجال الاستعمال لوحظ اختفاء شبه كلي لمادة الرخام من هذه الصناعة، وبقي الحجر الجيري هوالمادة المفضلة لدى أهل تلمسان بجميع شرائحه الاجتماعية، وربما يعود سبب ذلك في اعتقادي إلى ظروف المدينة التي أدت إلى تدني نمط معيشة السكان، بسبب تغير الوضع السياسي فيها حيث فقدت الكثير من مكانتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتميز بها قبل ذلك العهد هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فوفرة الحجر الجيري الذي كان يجلب من المحاجر القريبة الموجودة في محيط المدينة بأسعار رخيصة وتنافسية مقارنة بالرخام، ومن العوامل التي ساعدت بدورها على انتعاش الشواهد الحجرية، التي كانت في متناول الجميع ؛ سهولة القلع، وقرب المربض، ورخص الثمن، وقد أدت هذه العوامل الثلاثة، زيادة على وجود صناع وحرفيين إلى الاهتمام بالأمور الفنية كالزخرفة بشقيها النباتي والهندسي.

4- أنماط الشواهد :

سبق وأن ذكرنا أن صناعة الشواهد القبرية في مدينة تلمسان الزيانية والعثمانية عرفت ازدهارا كبيرا، واهتماما بالغا من طرف المجتمع بجميع أصنافه لم تعرفه هذه المدينة من قبل. وكان لهذا الازدهار أثره الطيب على تنوع وتعدد الأشكال والأنماط التي يمكن تصنيفها إلى نمطين أساسيين هما :

النمط الأول :

ويعرف هذا النمط بالموشوري تعد الشواهد المستطيلة المتوازية الأضلاع ذات الشكل الموشوري من أهم الشواهد التي عرفها المغرب الأوسط بصفة عامة وتلمسان بصورة خاصة، وتتميز هذه الشواهد من غيرها بشكلها ذي الخصائص والمميزات التي تختلف تماما عن الشواهد الأخرى إن في الشكل أم في تقنية الصناعة أم في جانبها الفني.

وتتكون هذه الشواهد عادة من كتلة واحدة، مشكلة من عدة بلاطات متوازية الأضلاع قد يصل عددها إلى أربعة بلاطات مشكلة على هيأة مدرجات، تنتهي بقمة مسنمة، منظرها الجانبي يرى على شكل مثلث. وتختلف شواهد تلمسان عن شواهد القلعة وبجاية في القاعدة نصف الدائرية بالنسبة لشواهد تلمسان، خلافا لشواهد الحماديين المسطحة. وتتميز بلاطات السفلى بالاتساع بالنسبة للعليا التي تضيق تصاعديا إلى أن تنتهي برأس شبه مسنمة عكس الشواهد الحمادية التي تنتهي بقمة مسنمة. وعرفت هذه الشواهد في المغرب العربي بعدة أسماء، ففي الجزائر عرفت باسم (جنابية) وجمعها جنابيات، وهذا في منطقة الغرب الجزائري بمدينة تلمسان على وجه التحديد، وفي المغرب الأقصى عرفت باسم (المقابرية) وجمعها مقابريات أومقبريات، ما زالت مستعملة إلى يومنا هذا[1]، كماعرفت في إفريقية بتونس باسم (سنم)[2] وجمعها أسنام، وهوالقبر المسنم. ومن أهم الخصائص التي تتميز بها الشواهد الموشورية التلمسانية ما يلي :

---

[1] عن هذا الموضوع راجع :

A.Bel, **Inscription arabes de fes**, p13, note Rev.Afr, 1935, 1er trimestre (premier congres Soc.Savante Afr.du nord.H.Basset et L.provencal, **Chélla Une nécropole mérinide** dans Hespperis, II,1922, 1er et 2em trim.,Pp.11-12 note5 :- Ch.Monchicourt, **Kairouane**, dans Rev.Tunisienne, 1932, p330, n.36, ; -M. El **HABIB ,Steles Funeraires Kairouanaises du III/IX Au V/XI** Etude typologique et Esthetique,,in R..E.J. Fas II,XL,III<1975, p234

[2] ينظر Ch.Monchicourt,Kairouane et les Chabbia ,p70.

شواهد موشورية زيانية تلمسان

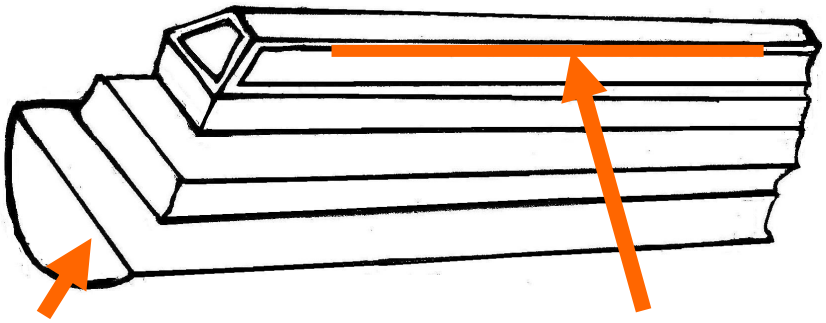

الشريط الكتابي

قاعدة نصف دائرية

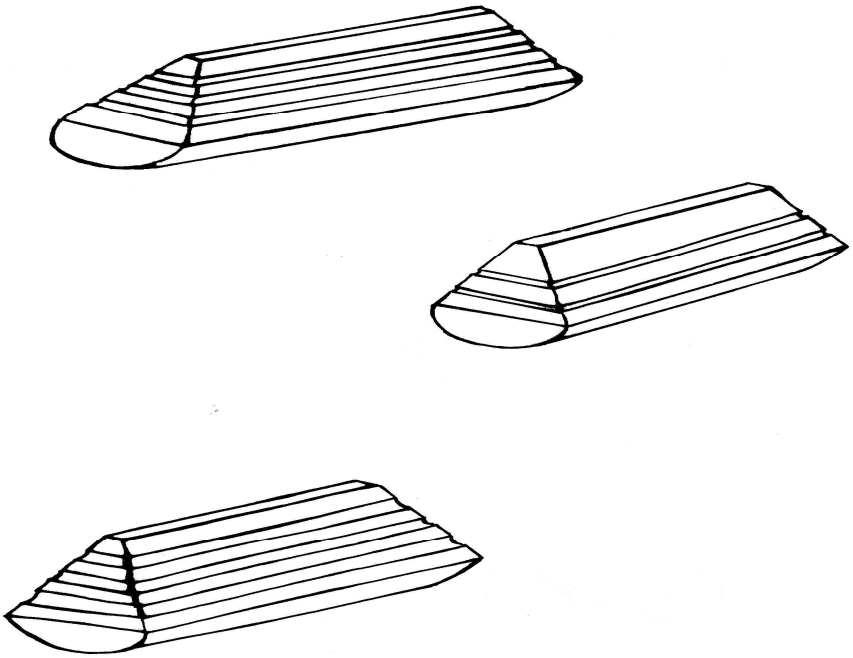

شواهد موشورية عديدة التدرج

1- أن شواهد تلمسان بسيطة المظهر خالية من الزخرفة الجانبية التي عادة ما كانت تزين شواهد بجاية والقيروان .

2- أنها تتميز بقاعدتها ذات الشكل نصف الدائري على خلاف شواهد بجاية والقيروان التي تتميز بقاعدة مستطيلة مسطحة.

3- عدم وجود النسبة الفاضلة التي تبدوجلية في الاختلال الموجود بين القاعدة التي تتميز بالضخامة والاتساع، وبين القمة التي تتميز بالصغر والضيق، مما يعطي في النهاية شكلا يشبه شكل الهرم.

4- تتميز قمم شواهد تلمسان بالتسطيح الناتج عن القطع الأفقي مما أعطى للمثلثات الجانبية شكلا يشبه إلى حد كبير شكل شبه المنحرف، وذلك خلافا لشواهد بجاية ووقلعة بني حماد التي تنتهي قممها بسنم أي برأس مثلث.

ومن أهم ما يميز الشواهد الموشورية التلمسانية هوعددها الوفير إلى حد ما (أكثر من 12 شاهدا)، وتعدد أشكالها كما أسلفنا، مما نتج عنه وجود نماذج متعددة للنمط الواحد، وهوعامل مهم للتطور الذي عرفته هذه الصناعة في ذلك العهد، والذي يندرج ضمن ما يعرف بحلقات الارتقاء والتطور الطبيعي من الشكل البسيط ذي البلاطة الواحدة أواثنين إلى أشكال متعددة الدرجات وصل عددها بعضها إلى أربعة أوخمسة، مكونة من كتلة واحدة في شكل هام يفصل بين الواحدة والأخرى أشرطة أوأخاديد مفرغة[1]، على غرار بعض شواهد بجاية، وأما الكتابة فكانت تنقش على جانبي الموشور من جهاته الأربع .

ب النمط الثاني :

ويعرف هذا النمط بشكله المزوى المنضدي والذي تتشكل منه غالبية الشواهد التلمسانية الذي يقدر عددها بأكثر من 99% من مجموع شواهد مدينة تلمسان.

ومن الخصائص التي تتميز بها هذه المجموعة من الشواهد، هوتعدد أأشكالها الهندسية فمنها ما هومستطيل الشكل ومنها ما هومربع الشكل ومنها ما

---

[1] A.Bel, **Une epitaphe tlemcenienne du xv siecle de J.c**, Premier congres de la federation des savants,1935,p242pp239-255

-هذا النوع من الشواهد صنفناه ضمن الشواهد المدرجة (الصنف هـ) وكذلك ضمن الصندوقية (الصنف الثالث)لما له من مميزات مشتركة بين الاثنين.

لا يخضع لأي قواعد هندسية، لكونه غير منتظم الأشكال وغير متساوي الأبعاد. بعضها طويل والبعض الآخر عريض، منها ما هومتقن الصنع، ومنها ما هوفض خشن الصنع، يرتبط بمكانة الميت وعائلته والطبقة الاجتماعية التي ينتسب إليها صاحب الشاهد، فبقدر علومكانته ورفعته بقدر ما حسن شكل الشاهد. ونظر لتلتنوع الذي يتميز به هذا النمط من حيث الجانب الزخرفي فإننا ارتأينا تقسيمه إلى عدة أنواع نلخصها فيما يأتي :

1- الشواهد ذات الزخرفة المعمارية :

تتميز هذه المجموعة بتنوع وثراء عناصرها المعمارية التي وظفها الصانع في عملية تزيين السطوح والمساحات، وهي عبارة عن أقواس متنوعة الأشكال، استعملت كأطر لاحتضان النصوص الكتابية الشاهدية، نفذ معظمها بأسلوب الحفر البارز ولا وجود للغائر إلا في شواهد قليلة تعد على أصبع اليد الواحدة. ونظرا لتعدد تنوع عناصرها ارتأينا تصنيفها إلى نوعين رئيسيين وفق عدد الأقواس التي يشمل عليها الشاهد :

أ- الشواهد الأحادية القوس :

وهي الشواهد التي زينت سطوحها بقوس واحد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، حيث استعمل هذا العنصر المعماري كإطار لاحتواء النص الشاهدي، وكعنصر زخرفي في الوقت نفسه. ويتفرع هذا الصنف بدوره إلى نوعين وفقا لتقنيات الصنع والتشكيل وهما :

أ1- الشواهد ذات الأقواس البسيطة الأحادية القوس على شكل قوس نصف دائرية أوعلى هيأة حذوة الحصان، نفذ معضمها بالنقش البارز بما في ذلك الكتابة والزخرفة. ويعود أقدمها تاريخيا إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري (791هـ/1390م).

أ 2- الشواهد المفصصة :

وتتميز هذه الأقواس عن سابقتها بشكلها الزخرفي المعقد الذي أظهر فيه الفنان نوعا من التكليف والإبداع الفني، فانتقل به من البساطة إلى ما هوأجمل وأحسن، ويتكون هذا القوس من مجموعة فصوص نصف دائرية وحذوية ومدببة، مما أضفى على الموضوع الزخرفي بعدا جماليا يحاكي في شكله شكل المحاريب الأندلسية والمرابطية المفصصة، على غرار أقواس ومحاريب جامع قرطبة

والجامع الكبير بالجزائر وتلمسان. ومن أقدم الأمثلة على هذا النوع ساهد مؤرخ في عام 990 هـ 1582م.

في حين تميزت آخر صورة من هذه المجموعة من الأقواس المفصصة بشكلها البصيلي الذي يعود للفترة العثمانية، وقد أضيف لها عنصرا زخرفيا آخر تمثل في العوينات الصغيرة (oeuillets) التي أصبحت تزين الزوايا الخلفية للفصوص، تذكرنا بالعوينات التي تزين بعض الكتابات والمراوح الزيانية بجامع سيدي أبي الحسن بتلمسان[1]. وهي تأثيرات زخرفية أندلسية وفدت إلى بلاد المغرب العربي في القرن الثامن الهجري. كما حصل تغيير في شكل إطار القوس الذي تحول من مجرد خط هندسي إلى شريط زخرفي قوامه زخارف نباتية، يتصل مباشرة بطرفي القوس مكونا معه زاوية شبه قائمة .

ب - الشواهد المزدوجة الأقواس :

ونعني بها الشواهد التي تحتوي على قوسين اثنين. ويتميز هذا النوع من الشواهد بحجمها الكبير نسبيا الذي يشبه شكل البلاطات التي يفوق عرضها طول ارتفاعها خلافا لبقية الألواح الشاهدية الأخرى، وأما أسلوب النقش فقد نفذ القسم الأعظم منه بأسلوب الحفر البارز، والنزر القليل بأسلوب النقش الغائر خاصة الشواهد ذات الأقواس المفصصة. ويمكننا التمييز بين نوعين اثنين من الأقواس المزدوجة ؛ الأقواس المزدوجة البسيطة والمزدوجة المفصصة على منوال الأقواس الأحادية.

ب 1- الشواهد ذات الأقواس المزدوجة البسيطة :

فأما البسيطة فهي الأقواس التي تخلومن الفصوص، ولدينا منها أمثلة قليلة، وهوعبارة عن قوسين نصف دائريين أوحذويي الشكل، نفذا بداخل إطار عبارة عن أشرطة زخرفية تحيط بالقوسين من ثلاث جهات، وقد تم إيصال طرفي الإطار بطرفي القوسين عبر خط أفقي مشكلان معا زاوية شبه قائمة.

ب 2 - الشواهد ذات الأقواس المزدوجة المفصصة :

وأما الشواهد ذات الأقواس المفصصة المزدوجة فإنها لا تختلف عن البسيطة في الجانب الشكلي وخاصة الإطار التنظيمي الذي رتبت وفقه

[1] للاستزادة يراجع كتابات هذا المسجد في الكتابات الكوفية في الجزائر بين القرنين الثاني والثامن الهجريين، لعبد الحق معزوز

الأقواس. حيث نجد نفس القوسين متحاذيين داخل إطار من الأشرطة يفصل بينهما خط رفيع على غرار ما سبق ذكره. وإنما الاختلاف الأوحد هنا يكمن في الجانب الفني الذي يمكن ملاحظته بصورة جلية في القوس الذي تغير شكله وصار عن فصوص نصف دائرية" يضاف إلى ذلك توظيف زغرفة العوينات في الزوايا، ويعد هذا الأمر تطورا إيجابيا، ونقلة نوعية تعكس النضج الفني الذي بلغه فنانومدينة تلمسان في أواخر العصر الزياني وأوائل العصر العثماني.

5- المحراب :

يعد المحراب من بين العناصر المعمارية التي اعتنى بها الفنان التلمساني مع نهاية العصر الزياني وبداية العصر العثماني، وخصها بمكانه تليق بها في المجال الزخرفي، بعد أن كانت الزخرفة منحصرة في الأقواس بمختلف أنواعها في العصر الزياني. لقد عوض فنانوتلمسان في العصر العثماني القوس بعنصر آخر هوالمحراب[1] الذي احتل مكانة مرموقة ومتميزة في تزيين وزخرفة شواهد القبور التلمسانية في هذا العهد على منوال ازدهار الأقواس في العهد الزياني.

وقد تفردت مدينة تلمسان بهذا العنصر الزخرفي دون سواها من المدن الأخرى. إذ لا نستبعد أن يكون المحراب بالصورة التي صار عليه في العهد العثماني هونتيجة لتطور القوس الزياني، أوبالأحرى ربما يكون ثمرة للتحسينات التي أدخلها الفنان على القوس الذي خضع لعدة تعديلات باستعمال ضروبا من الأشكال إبان العصر الزياني وأوائل العصر العثماني، إلى أن انتهى به المطاف إلى هذه الصورة التي تشبه المحراب مع المحافظة على القوس والعمودين اللذان يرتكز عليهما، والحقيقة أن هذه الصورة مألوفة في فن العمارة الإسلامية. وقد يعتبر البعض أن هذا العنصر مجرد كوة (نافذة) تقوم على أعمدة، تذكرنا بالنوافذ التي نجدها في العمارة الحمادية في قلعة بني حماد، والتي انتشرت بكثرة في العمارة العثمانية وأصبحت من العناصر المعمارية المفضلة عند المهندسين المعماريين في ذلك العصر. وهي ثمرة التأثيرات الأندلسية في العمارة المغربية. ويتكون المحراب من الإطار والتجويف المقوس والأعمدة، هذه العناصر الثلاثة أصبحت حقلا خصبا ينهل منها الفنان التلمساني موضوعاته الزخرفية.

---

[1] لقد أشرت إلى هذا العنصر في دراسة سابقة (الدكتوراه) على أنها مداخل، ولكن واقع الحال يقول انها محاريب لما لهذا العنصر من رمزية في نفسية الفنان المسلم، لذلك فالمدخل لا يمثل له شيئا على عكس المحراب الذي يمثل القبلة والقبلة هي الكعبة الشريفة، التي يتوجه إليه خمس مرات في اليوم.

ومن خلال تفحصنا لمعظم الشواهد التلمسانية وقفنا على نوعين من المداخل ؛ نوع أحادي القوس، والآخر مزدوج القوس.

أ- الشواهد ذات المحاريب الأحادية :

ونعني بذلك المحراب المنقوش داخل اللوحة المستطيلة الشكل الذي يحتوي على فتحة مستطيلة يعلوها في الغالب قوس بسيط إما نصف دائري أومتجاوز منتهيا بقمة منكسرة. يبدوالنموذج الذي هوموضوع الدراسة أقرب إلى شكل المقطع العمودي للقبة الإيرانية منه إلى القبب الأخرى المنتشرة عبر مختلف الأقطار الإسلامية، وهوخالي من عنصر التفصيص، تتوج قمته حلقة شبه دائرية عبارة عن عقدة مشكلة بفعل تقاطع ضلعي القوس عند منتصف قمته. نفذ المحراب بداخل إطار مشكل من ثلاثة أشرطة زخرفية تحيط به من اليمين واليسار والأعلى.

مجموعة من الشواهد المنضدية الزيانية والعثمانية

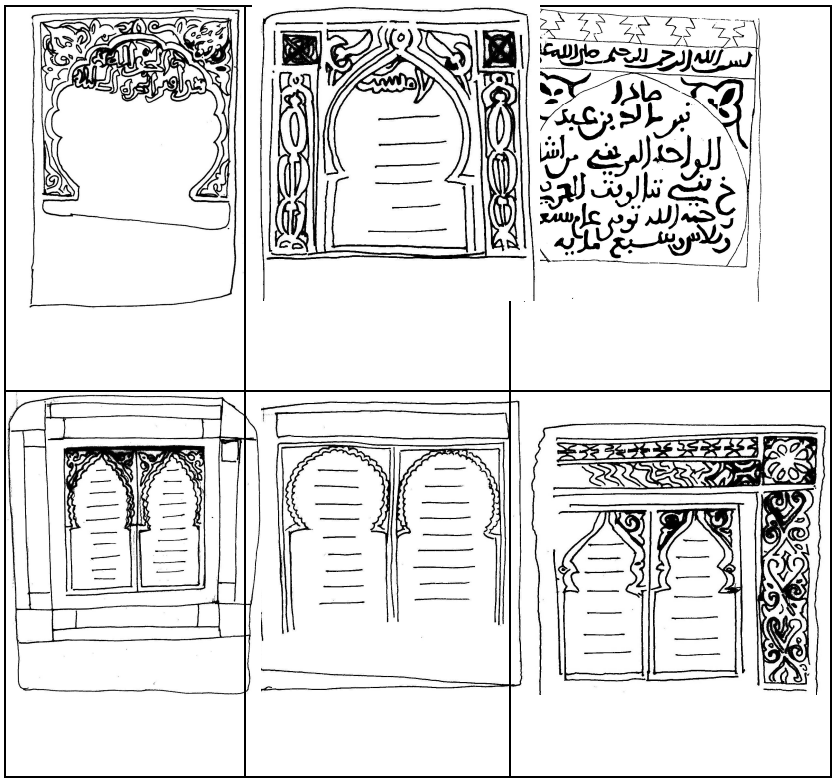

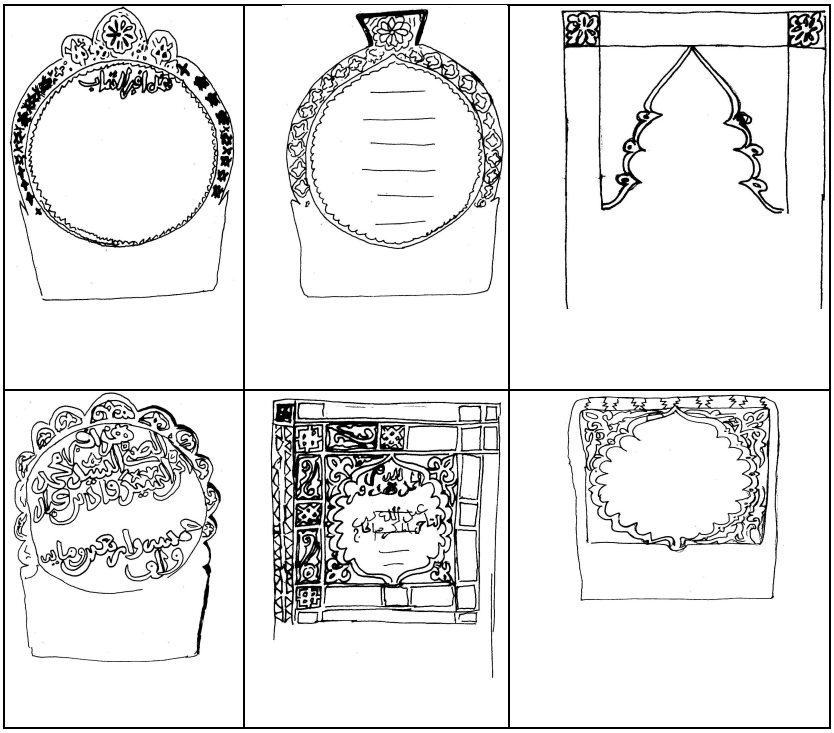

مشغولة بزخارف نباتية متناظرة قوامها براعم ومراوح مزدوجة، بعضها محور وخاصة الشريطين الجانبيين. أما الأركان فقد زينت بمربعات تشغلهما زخرفة هندسية. وأما النص الشاهدي فقد خصص له الحقل المحصور بين أضلاع المدخل. ويتميز هذا القوس عن غيره من الأقواس بشكله القلنسوي .

ب - الشواهد ذات المحاريب المزدوج :

يتكون من مجوفين اثنين متحاذيين يعلوهما عقدان مفصصان، ويفصل بينهما خط رفيع على غرار الخط الذي يفصل الأقواس المزدوجة التي سبق الحديث عنها. ويمكننا التمييز في هذه المجموعة بين نوعين من المحاريب المزدوجة وفق شكل القوس الذي تحتوي عليه :

1- **المحاريب ذات الأقواس الحذوية الشكل :**

وتتميز بعقودها المفصصة التي تشبه شكل حذوة الفرس، وقد نقشت بداخل أطر مستطيلة عبارة عن أشرطة تحيط بها من ثلاث جهات، تشغل هذه الأشرطة تشكيلات زخرفية نباتية بالنسبة للشريطين الجانبيين، وزخرفية هندسية بالنسبة للشريط العلوي. من المحتمل جدا أن يكون هذا المثال من

الأقواس حديث العهد مقارنة بغيره، وليس له خلفية تاريخية بعيدة في الزمن، وحسب المعطيات الفنية فإن العصر العثماني، وبالتحديد نهاية القرن الحادي عشر الهجري (17م)، يكون هوالزمن الأنسب لظهوره حيث اختصت به شواهد مدينة تلمسان فقط دون سواها.

وعن اللوحة ذات القوس الحذوي يعتقد فرانكوفسكي أن أصل هذا الشكل يعود حسبه إلى اسبانيا الرومانية، حيث استعملت حينئذ اللوحة ذات العقد الحذوي الشكل في الكنائس القوطية وخاصة في ناحية أوفييدووأوسطريا قبل الإسلام، وهوتحريف للشكل الدائري للشاهد الذي فقد فيما بعد دوره وأصبح صورة محورة للدائرة التي فقدت تقريبا مدلولها الوظيفي وأصبحت مجرد عنصر زخرفي[1]. وهكذا تأثرت حسبما يبدوالأندلس الإسلامية بهذا الشكل الحذوي الذي أصبح فيما بعد من أهم العناصر الزخرفية في الفن الإسلامي[2]،

2- المحاريب ذات الأقواس المنكسرة :

أما المحاريب ذات العقود المنكسرة فمعظمها من النوع الذي يتميز بالقوس المفصص، وهي تشبه إلى حد كبير قوس المدخل الأحادي الذي سبق ذكره لولا وجود أسلوب الفص، وهومن النوع الذي يعرف بالعقد المتجاوز المنكسر. أحيط العقد بأشرطة مزدوجة من جهاته الأربع خلافا لما عاهدناه في معظم الشواهد السابقة التي كانت الأشرطة تحيط بها من ثلاث جهات فقط، وقد شغلت الأشرطة الدلخلية بعناصر زخرفية نباتية عبارة عن أشكال متنوعة من المراوح، في حين شغلت الأشرطة الخارجية بزخارف هندسية تتخللها مربعات مشغولة بزخارف نباتية ولا سيما تلك التي تتوج الأركان. أما المساحة العلوية المحصورة بين العقود وأركان المستطيل فقد زينت هي الأخرى بتشكيلة زخرفية نباتية، قوامها مراوح بسيطة ومزدوجة. وأما ظهور هذا النوع من الأقواس والعقود، يبدوأنه يتصادف مع منتصف القرن الثاني عشر الهجري (17م) في مدينة تلمسان دون سواها من مدن المغرب الأوسط، وربما في المغرب العربي والأندلس أيضا، وهومن الشواهد التلمسانية القديمة[3].

---

[1] E.Frankowski ,**Estelas discoideas de la peninsulalberica** (Navarre. p.154).

[2] G.Marcais, **Manuel d`art Musulman** ,P.364

[3] Bourelly et E. Laoust, **steles funeraires Marocains..,** PI.LII j.

وإلى جانب هذه الزخارف المعمارية عرفت بعض الشواهد التلمسانية في هذا العصر (العثماني) زخارف أخرى هندسية تنحصر بصورة خاصة في مربع من الأشرطة يتوسطه مضلاعات أودوائر تحتوي الكتابة الشاهدية.(الشكل)

3- الشواهد الدائرية(القرصانية) :

ظهر هذا النوع من الشواهد في تلمسان العثمانية مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. وقد ظهر هذا النوع بالتوازي في مدينتي قسنطينة والجزائر.والظاهر أن هذا النوع يعود تاريخه إلى العصر الروماني حسب فرانكوفسكي والذي فقد دوره وعوض بالدائرة.

لقد انتشر هذا النوع في الجزائر في العصر العثماني في الشواهد العامة والخاصة، وهوكما يلاحظ يقوم القرص على لوحة شبه مربعة، ينتهي إما بزائدة واحدة أوبثلاثة زوائد أكبرها الزائدة الوسطى وإما هوعلى شكل دائرة مفصصة.شغلت هذه الزائد بزخرفة نباتية عبارة عن وريدات ومراوح.

ويغلب على الظن أن هذا النوع من الشواهد مهد لظهور ما يعرف فيما بعد بالشواهد المكتفة (Epaule) أي التي ينطلق قرصها من أكتاف، وهوالشكل المحور والافتراضي للإنسان، فتمثل اللوحة المربعة جذع الإنسان والقرص رأسه، والتي مهدت بدورها لظهور الشواهد الإنسانية التي تتشابه كثيرا مع شكل الإنسان.

6- الزخرفة :

بالرغم من أن الشواهد ترمز إلى حالة من الحزن، إلا أن الفنان المسلم والتلمساني بالخصوص لم يكتف بتجويد صناعتها والاهتمام بتحسين شكلها فحسب، وإنما اهتم كذلك بتزيينها وزخرفتها، إلى أن صارت عبارة عن لوحة فنية، وخاصة في العصر العثماني، كأنها تعبر عن الفرح وليس عن الحزن والخوف والأسى. ومن العناصر الزخرفية التي ازدانت بها الشواه نجد بالدرجة الأولى :

أ -الزخرفة الكتابية :

احتوت كل الشواهد التلمسانية نصوصا كتابية بخطوط متعددة أهمها : خط النسخ الموحدي والذيب نقشت به نصوص الشواهد الزيانية، والخط الكوفي الذي استعمل في شاهد زياني واحد فقط، والخط المغربي الذي شاع العمل به في العهد العثماني بصفة خاصة.ومن الناحية الحضارية تضمنت هذه

الكتابات على مجموعة هامة من العناصر التأريخية كالتواريخ وأسماء الأعلام والألقاب والأمراض والصيغ الدينية وغير الدينية وأبيات شعرية وحكم، ،الخ.

ب – الزخرفة النباتية :

لقد ازدانت شواهد تلمسان في العصر العثماني بأنواع عديدة ومتنوعة من الزخرفة النباتية خلافا للعهد الزياني الذي قلت فيه هذه الزخرفة التي اقتصرت فقط على الحقل الكتابي لملء الفراغات ما بين الحروف، بينما ازدهرت في العهد العثماني وتوسع استعمالها في تزيين الأشرطة والأطر التي تحدد مجال الحقل الكتابي وفي الأركان. ومن بين الزخرفة المستعملة في هذا العصر نجد المراوح وأنصاف المراوح البسيطة والمزدوجة، المتناظرة وغير المتناظرة، شكلت أوراقها في أوضاع متعددة وبصور متنوعة خصت بها الأشرطة والأركان. زيادة على المروحة نجد الزهيرات بأشكال متعددة أيضا، منها الثلاثية والخماسية البتلات والتساعية البتلات. التي كانت تشغل المربعات الركنية والزوائد التي تتوج رؤوس الشواهد القرصية وثمار وفروع. ويضاف إلى ذلك كله تشكيلات كثيرة من زخرفة التوريق التي تمتد على طول أشرطة الأطر الكتابية.

ج – الزخرفة الهندسية :

وظف الفنان التلمساني تشكيلة غنية من الزخرفة الهندسية في الشواهد المنضدية،وبخاصة تلك التي تعود إلى الفترة العثمانيةومن العناصر الهندسية المستعملة في شوهد تلمسان نجد الخطوط المستقيمة المكونة للأشرطة والأطر، والخطوط المنكسرة والمتموجة، وهذ العناصر نجدها في الشواهد الزيانية والعثمانية. إلى جانب ذاك استعملت أشكال أخرى من الزخارف الهندسية في الشواهد العثمانية كالمربعات والمعينات والدوائر والمثمنات، والشرافات، Merlons وغير ذلك من المضلعات التي زينت بها مسطحات الشواهد التي تتناسب كثيرا مع هذا النوع من الزخارف الذي يهتمد على المساحات والفراغات المسطحة الواسعة.

د- الزخرفة المعمارية :

وظف الفنان التلمساني في العهدين الزياني والعثماني مجموعة من العناصر المعمارية كالقوس بشكال متعددة منها نصف الدئري، والمتجاوز ذي المركزين، والمنكسر والحذوي، والأقواس والمشرشفات، والمفصصات والزوائد. ومن العنصر المعمارية أيضا نجد المحاريب الأحادية والمزدوجة التي تنتهي بعقود متنوعة ومتعددة منها نصف الدائري والمنكسر والمشرشف والمتجاوز وغيذلك من الأقواس.

7- قيمتها الحضارية والتاريخية :

يعتقد بعض الدارسين أنه بإمكان هذه الشواهد إعادة تشكيل وتصور المؤسسة البشرية القديمة (المقبرة)، ووضعها في إطار حي أوسع وأشمل يمكن من خلاله تحسس مختلف أبعادها(أي المقبرة) في نطاق البعد التاريخي للإنسان[1]. وذلك بما تنطوي عليه من معلومات تخص الإنسان ومحيطه الجغرافي والاقتصادي والصناعي، وبيئته التاريخية والثقافية، وما إلى ذلك من المعلومات التي من شأنها إلقاء المزيد من الضوء على تلك المجتمعات البشرية وطرق حياتهم وأساليب معيشتهم ونمط تفكيرهم.

وتكمن قيمتها الحضارية في ما ترمز إليه هذه الشواهد من دلالات دينية وعقائدية ومذهبية تطلعنا على الطقوس الدينية التي تصاحب الميت إلى مثواه الأخير وهوالقبر.

هذا من حيث دلالاتها الرمزية أما من حيث الدلالات الحضارية والتاريخية، فهي بمثابة حقل خصب للدراسات التاريخية والاجتماعية بصفة عامة،بما تحمله من معالم حضارية كالنصوص التي تحتوي على الكثير من المقومات التاريخية التي تفيد الباحثين في الدراسات التاريخية. ومن حيث الجانب الحضاري فعناصرها الزخرفية كفيلة بإفادة الباحث بكل ما يحتاجه من معلومات فنية وثقافية لذلك المجتمع، فضلا عما تقدمه هذه الشواهد من معارف اقتصادية وتجارية وصناعية .وخلاصة القول أن هذه الشواهد عبارة عن مرآة تعكس الوجه الحقيقي للمجتمعات التي صنعتها وساهمت في بلورتها وتطويرها، فهي ورقات حضارية لهم.

---

[1] حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، تونس1972، ج3، ص403.

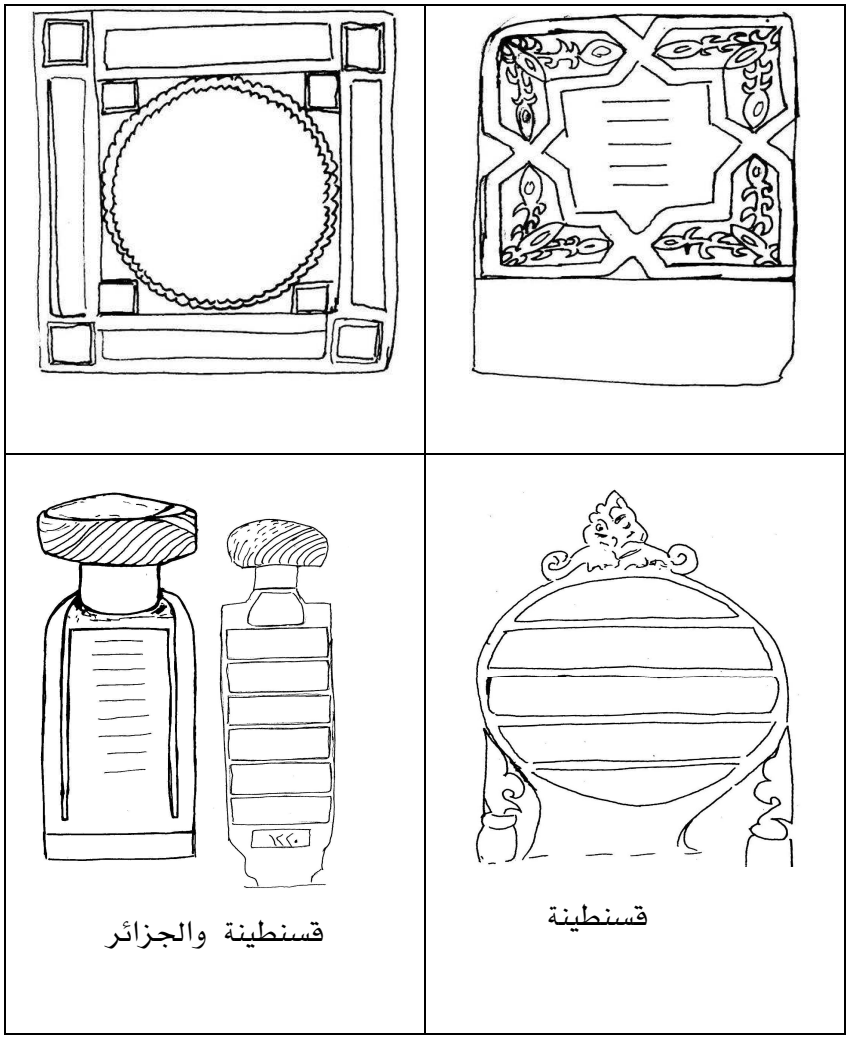

شواهد تلمسانية تزينها زخرفة هندسية